مـــــدار الهـــــلاك

فصل من رواية «ملوك الظلام»

نازك الأعرجي

منذ سبع سنوات، في السادس عشر من كانون الثاني ١٩٩١، شنَّت الطائراتُ الأميركية وحليفاتها غاراتٍ مرعبةً على بغداد والعراق. الكاتبة العراقية نازك الأعرجي عاشتْ تلك الأيام السوداء التي يهدّد «ملوكُ الظلام» الأميركيون بإحيائها من جديد (وربَّما قصفوا بغداد قبل وصول «الآداب» الى القرّاء!). وفيما يلي نقدّم فصلاً من روايةٍ سيرذاتيةٍ تُنشر قريباً.

ظلام..

فوق ظلام.. تحت ظلام.

عجينة سوداء هائلة من أجل كعكة عرس الهلاك.

مغارة كونية عظمى للكينونات الإنسانية الهشّة التي لا تقوى على مقاومة الأخطار.

دبَبَة، أُسُود، ضِباعٌ، ذئاب... والنار ممنوعة! ممنووووووعة!!

يُمنَع إشعال النار في الغابة.. احذروا!

«أطفئوا الأضواء!»

يصرخ بنا صوتٌ من العتمة الهلامية.. بحر الظلمات.

ما الذي كان السندباد يصنعه وهو يصارع الأمواجَ والريحَ والعتمة، في مركبه الهشّ الراقص رقصةَ العنف والموت في بحور الظلمات؟.. يصبر؟.. يقاوم؟ أم يستسلم، وهو يتلذّذ بامتصاص عود اليأس الطريّ يتحلّب في فمه عسلاً حارق الحلاوة؟

«أطفئوا الأضواء»!

ونفزع ونحن نكتشف فداحة ضوء فانوسنا الشحيح وهو يتجلى على مسرح الهلاك، تحت سماءٍ تَخْزرنا بنجومها المتوحشة، وتشكل كواكب العصر الجديد التي تتخذ اليومَ هيئةَ «الدب الأوحد»: ثلاثة أقمار صناعية، بل أربعة تعوزها ثلاثة لتصبح «دباً أكبر»، واثنان لتصبح برج الدلو، ولو أنها كانت أقلّ بواحد لأصبحت «الدب الأصغر»: بنات نعش الراكضات وراء نعش والدهنّ.. والثالثة المتأخرة هي الصغرى.. العرجاء.

«أطفئوا الأضواء»!

فنرتعش رعباً مما يمكن أن نجرّه بضوئنا الفاضح على الوطن!، لا على أنفسنا بأي حال.. تركض الجارة التي جرؤت على مغادرة بيتها قبل حلول الظلام بقليل، لا تريد سوى الوصول إلى الباب.. خطوات فقط، ثوانٍ فقط.. لكن الثانية الواحدة قد تجلب القيامة.

ترتعش الأرض تحت قدميّ..

«أطفئوا الأضواء!»

مَنْ يصرخ بنا؟

أفكر: صوت بصوت:

«حسناً، حسناً، ثانية واحدة» أهتف. تبشّرني جارتي بوصولها إلى مغارتها، أسمع صوت ارتطام باب بيتها وخطواتها الراكضة عبر كراج حديقتها. أصفع باب بيتي بعنف لأطمئن صاحبَ الصوت بأنّ كل شيء قد «استتبّ» الآن. أُغلق البابَ الخارجي، ثم الباب الداخلي، ثم باب الممرّ، ثم باب الصالون، رجوعاً، رجوعاً إلى أعماق البيت، آخر غرفة فيه، أنا وشعاعُ فانوسي الشحيح.

هل لاسم «الرَّحِم» علاقةٌ «بالرحمة»، أم أنّ الرحمة اشتُقّتْ من الرحم حيث يمكن للكائن العاري الطريّ العظام والأظفار والحول والقوة أن يجد الرحمة إلى حين؟

في غرفتنا تلك، مغارتنا، رَحِمِنا التي أمضينا فيها أيام الحمل والمخاض ـ هل وُلِدنا في آخر الأمر؟! ـ تجلس أمي على فراشها الأرضيّ وهي تُلصق أذنها بالمذياع. «ما شأن الصوت؟ إنه لا يستدرج أسلحة الأعداء»، أقول لها. لكن الخوف من الصوت الفاضح لا علاقة له بالراهن. إنه خوف من نوعٍ آخر، يتعلق بحرب من نوع آخر.

الليل ليس لنا.. إنه لهم.

من هم؟

لا أدري.. «بل إننا لنحسّ بأننا متطفّلون على الليل. فما إن يحلّ الظلام حتى يبدأوا بحفزنا على الانمحاء.. يكنسوننا: «اذهبوا، هيّا، قوموا، ما الذي تنتظرون؟ إنكم تزعجون لعبنا، تتطفّلون على انسجامنا.. هيّا»!

مثلَ ضيوفٍ غيرِ مرغوبٍ فيهم نكون في الليل. وحين ندرك تطفّلنا نستحيي من أنفسنا، فننزوي في أعمق نقطة من البيت ونكمن هناك لا نكاد نأتي بأية حركة زائدة عن الحاجة خوفَ أن نُزعج ملوك الظلام، أو أن نلفت انتباههم إلى وجودنا فنزيدَ من غضبهم، فيضربونا ضربةً أشدّ مضاءً.

النهار لنا..

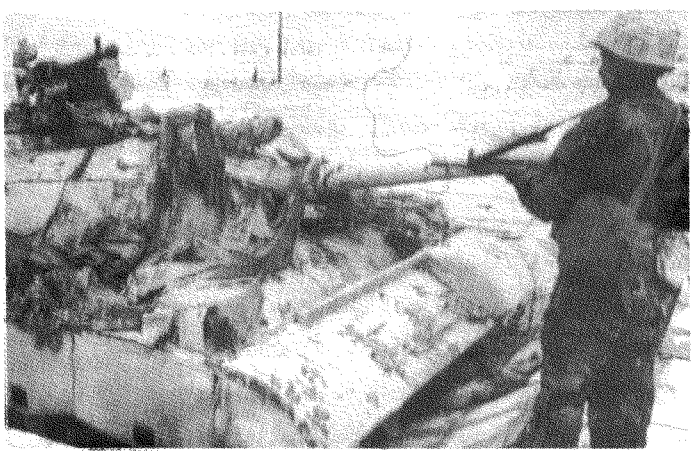

كلا، كلا.. ليس لنا، بل لنا ولهم.

كلا.. إنهم فقط يتغاضون عنّا قليلاً، لعلهم يدركون أن الخوف يتعاظم في الظلام ويخفّ في النهار، فلا يتمادون في إخافتنا نهاراً لئلاّ نعتاد الاستخفافَ بهم.. هل لذلك علاقة بالإخفاء والإظهار؟ أن يكون الإنسان قد ورث من عصور الغابة أن الليل ستّار وأنّ للنهار عينين، أم لأنّ الإنسان يكون أكثر هشاشةً في الليل لأسباب كونية: أيونات، مغناطيسية، انجذاب كواكب وأقمار ونجوم ومجرّات وثقوب سوداء وشهب ونيازك ومدارات؟

يموت أكثرُ المرضى ليلاً، وتلد أكثر النساء أو

يُجهضن ليلاً، وتهيج الأحزان والمواجع والشهوات ليلاً...

لكنّ المدّ يَحدث في الليل. فهل المدّ ضَعْفُ البحر أم قوّته، حزنُهُ أم مسرّاته؟ لعلّ البحر قد تعلّم الخبث وممارسة قوّته السريّة وشهوات التمدّد والانتصاب تحت جنح الظلام.. أو لعل البحر منهم.. ضبعٌ، ذئبٌ!

بل عسّاس.. نعم، عسّاس!

بل حاكم.. نعم، هذا هو: حاكم بأمره..

لا أدري...

سوف أتفرّغ للبحر وأتأمّل في أمره.. يجب ألا تُترك أمور القوة والضعف سائبةً «على عواهنها» لمن يشاء كيفما يشاء.. ولكن ما معنى «عواهنها؟!»

سوف أتفرّغ للحكم عليه في النهاية.. أعني البحر.. سأتفرغ للجميع، أقوياء وضعفاء لأرى فيهم أمري ما إن...

ما إن ماذا؟..

ما إن.. تنجـ.. لـ... يييي.. هذه الـ لـ لـ لـ...

هذه الـ... ماذا؟..

هذه الـ لـ لـ...

قولي.. أيتها الحاكمة.. بأمر ماذا.. بأمر مَنْ..؟

أيتها الحاكمة بأمر ضعفك وهوانكِ وقلّة شأنكِ وحيلتك، ورعبك من خيالك الذي يرسمه ضوءُ فانوسٍ يعبق برائحة النفط الخانقة على بلاط بيتك العتيق المقشّر المكسّر المتفتّت بين جدران تميد تحت سقفٍ تنثّ فطورُهُ الترابَ فلا تخشين سقوطه على رؤوسكم المنذورة للانفجار قَدْرَ خشيتك مما يمكن أن تفضحه تلك الفطورُ من الضوء الهزيل إلى السماء المتوعدة بالويل والثبور.

ضوء!! ضوء!!

نموت خوفاً من الضوء..

ما إن تغيب الشمس حتى نُسرع إلى الداخل، كأنّ النهار لم يكن سوى «فرصة» يُدَقُّ جرسُ انتهائها فنركض، مثلَ صغارٍ يُدَقّ جرسُ «فرصتهم» فيسارعون إلى الصفوف وينفلت في ساحة اللعب ـ على الفور ـ وحشُ العقاب(...)

ما إن يحلّ الغروب حتى نسارع إلى البيوت، لا من بواباتها، بل من حدائقها، إذ تصبح الحديقة ـ على الفور ـ ساحة حرب، فنحرم أنفسَنا فسحاتِها وممرّاتِها، بل نحرمها ظلالَها ونسيمها وعطر زهورها. ومن خلف الشبابيك نُزيح أطراف الستائر ونتلصص بفزع على وحشتها حيث يصول الهلاك ويجول. واذا ما اقترب الهلاك من شبابيكنا قلنا له: خُذِ الأشجار وبراعم الثمار، خذْ أعشاش اليمامات وبيت القطّة في دغل شجرة الدفلى، خذ الجوري والياسمين وعطر الليل واللبلاب، والنخلةَ خُذْها، وخُذِ الزيتونة أيضاً، وشجرةَ النبق التي نكّستْ قامتها المتجبّرة لتفسح للصواريخ طريقاً إلى اللحم الحيّ... خذها بثمارها المزهوة، اقطفْها، فالأولاد الذين كانوا يتهافتون على سرقة ثمارها قد رحلوا بعيداً، كلهم رحلوا إلى وهم أمانٍ توهّمه أهلوهم بعيداً عن هنا. أنتَ طفلنا المدلّل الآن.. معشوقنا، نتملّقك وندلّلك مادمتَ بعيداً عن أبوابنا الهشّة وشبابيكنا المشرّعة لزفيرك رغم التحصينات. خذِ الديك الذي نسيَ صياحَ الفجر والقفزَ على ظهور الدجاجات الفزعات المبتلاّت بالمطر الأسود.. خذ «التنّور» الذي تتقاطر بقايا الجارات عليه وهنّ يحملن عجينهنّ المختمر وحطباتهنّ البائسات: «يا حاجة، هل تسمحين لنا»؟ وتُشرّع أمي الأبوابَ للنساء والعجين والحطب والنقاشات الخطيرة حول المصير، والهمسات المبحوحة بأسرار دولية على أعلى مستوى. لم تعد النساء يخشين ارتفاع أصواتهن في عزّ النهار وهنّ يناقشن مصير الوطن! إذ لم تعد هناك آذان يخشين رقابتها ورهافتها وعواقب وشاياتها، فينهمكن بفرش الأرغفة على وسائد الخبز وهنّ يُصرّحن بأخطر التحليلات التي توصّلن إليها بعد ليلة من السهر المضني تحت قصف الطائرات والصواريخ الذكيّة وسماع الإذاعات الهادرة ليلاً ونهاراً بالأخبار. وبعد أن ينتهين «يصفّطن» أرغفتهنّ السوداء ذات الرائحة النفّاذة المنفّرة، ينظرن إلى حصادهنّ باشمئزاز: «أهذا خبز يليق بالبشر؟!» ويُقْسِمن بأغلظ الأيمان أن «دقيق الحصّة» ليس سوى علف أبقار. فتنبري إحداهنّ لتُصرّح بأنها واثقة أنّ

«الأبقار السعيدة» لا تُعلف سوى القمح الصافي من ماركة «صابر بيك»، فيضحكن بسرور ولا يدرين أنهنّ يفعلن ما فعله «يوريبيدس» حين جرّ التراجيديا من أنفها ليرغمها على البوح بسرّ الحياة.

... ما إن يحلّ الغروب حتى نركض إلى بيوتنا. نغلق الأبواب، نُسدل الستائر، نشعل المدافئ، نهيّئ عشاءنا المبكر على ضوء الغروب الرصاصي. وما إن يتولى الظلام حتى نُلحق المزيدَ من أجزاء البيت بخارطة الهجر ونُعْلنها مناطقَ حربٍ محظورةً.

جميع الغرف ذات العلاقة بالخارج نهجرها، فهي تفضح عار وجودنا الذي يجب أن يُستر في أعمق نقطة من البيت: في الحمّام، وبيت الدرج، أو في غرفة خلفيّة محميّة بغرف خلفيّة للبيوت المحيطة. ونواصل كلَّ يوم اكتشافَ حماقةِ تصميم بيوتنا «الحديثة»: شبابيك كثيرة مفتوحة على كل الاتجاهات، زجاج كثير، أسس ضيّقة، جدران هشّة. حتى السلالم!.. يا اللّه، حتى السلالم ليس لها «بيوت». سلالم معلّقة! يا للحماقة! كيف لم يخطر لنا أن نبني بيوتنا مثل قلاع القرون الوسطى؟ بل رحنا نحلم بأقبية محاكم التفتيش: حجر جبليّ، أساسات عريضة، جدران هائلة، فجوات عميقة ضيّقة. «كوّات» يعني.. ما ألذّ كلمة «كوّة». إذ ما حاجتنا إلى الشمس والهواء حين نكون أحوج إلى الحياة.. البقاء.. البقاااااااء؟!.

والسراديب؟، تلك الأرحام الرحيمة التي كانت أهمّ أجزاء بيوت أجدادنا، هم أرادوها لمتعتهم: مصايفَ بيتيّةً ينزلون إليها عند الظهر ولا يخرجون منها إلاّ إلى السطوح حيث ينتظرهم القمر.

...ندور في البيت نبحث عن غرفة تليق بمقبرة سومرية..

السومريون.. الأوائل منهم فقط حلموا بالحياة بعد الموت، فكانوا يدفنون موتاهم ومعهم الزاد والماء والخيول والعربات والحلي والخدم والزوجات.. وإذ ينهض الموعود، يتلفّت كمن يفيق من حلم ليجد حوله كلَّ أسباب الرفاهية فيبتسم، ثم يضحك، ثم يغرق في الضحك: «أهذا هو الموت، ما أهونه إذن»! ثم ينهض ويتمطّى منتشياً بعفريت الحياة ينطنط في عروقه وخلاياه، فيقفز، ثم يواصل القفز، ثم يصرخ، ثم يكتشف الرقص والغناء فيرقص ويغني ويرقص. حتى إذا ما تأكد تماماً من أنه حيّ من جديد، تمدّد على ظهره مرخياً أطرافه، متأملاً قبرَهُ وبصيصَ الضوء في نهاية النفق، ثم نهض وقد شبع ابتهاجاً، فبصق قرفاً واتّجه إلى الخارج جارّاً وراءه جيادَهُ وعرباته وكنوزَه. وما إن يضع قدميه خارج القبر حتى يجد «عبء الحياة» في انتظاره، يقفز على كاهله ويلفّ ساقيه حول عنقه ويمضيان.

بعد مرحلة قصيرة من وهم الانبعاث، كفّ السومريون عن هذه الحماقة فأورثوا البابليين والآشوريين خلاصة حكمة الوجود.

... نبحث عن السراديب في خلياتنا المحترقة، عن الجدران السميكة، عن بيوت السلالم الحصينة. وحين لا نجدها نكره بيوتنا ونهجرها، لا إلى بيوت أكثر حصانة، بل إلى أماكن نتوهم أنها أبعد عن الخطر، ونحن نتناقل أخباراً «أكيدة دائماً» عن أهداف الحرب وخرائطها وأيامها...

وإلاّ، فلا بد من المقبرة السومرية..

غرفة واسعة مضيئة بواجهة زجاجية كاملة.. الوقت ضيّق والغروب يداهمنا، وعليّ أن أحصّن الغرفة قبل حلول الظلام. غير أني أقف عاجزة عن تحريك أية عضلة في جسدي، فما الذي سيحصّن كلَّ هذا الزجاج وكل هذه الفتحات؟. لكنني، أبداً، ألصق الأشرطة المصمّغة على مفاصل الشبابيك وأحشو الفتحات المستعصية بالخِرَقِ والقطن، وعيناي ترقبان السماء المنذرة، وجسدي هامد يشلّه يأس عميق تصعب مراوغته وخداعه. من حولي أطفالٌ يصخبون ونساءٌ يلهوجن، وأنا أفكر: كيف يمكن أن تَصلُح غرفةٌ كهذه لنجاةِ كلِّ هذا العدد من الناس من الموت بالسلاح الكيميائيّ، في حين سيموتون فيها اختناقاً بثاني أوكسيد الكاربون؟! لكنني أواصل تحريك أصابعي الثقيلة اليائسة، حتى إذا أوشكتُ على لصق جميع مفاصل الشبابيك لمحتُ غيمة زاهية اللون تزحف من الأفق.. فرحتُ أصرخ: «كيمياوي!» وقد شُلّ جسدي رعباً. لكنّ أحداً لم يفزع كما فزعت، وواصلت الغيمةُ اقترابها وقد تجلّى لونها البرتقالي، فإذا بأمي تشير إلى أعلى الشباك لتقول لي ببساطة وبرود: «ألا ترين أنّ الواجهة الزجاجية غير متصلة بالسقف؟» أتطلع إلى حيث تشير فأرى الفراغ الممتد من أقصى الجدار إلى أقصاه بين حافة الشباك والسقف، فأنهار وترتخي عضلاتي ومفاصلي.. ما الذي كنت أفعله كل هذا الوقت إذن؟ «لِمَ لم تقولي؟» أصرخ وأنتحب.. «لِمَ لم تقولي ذلك قبل أن أبدأ العمل؟ لو فعلتِ لكنتُ بحثت عن غرفة أشدّ تحصيناً».

تداهمنا الغيمة البرتقالية فنضطرب ونصطدم بعضنا ببعض.. ثم يحلّ مشهد آخر كأنما أُلصق بالمشهد السابق بعملية مونتاج.. أنظرُ إلى ساعدي فأجده ممتلئاً بالفقاقيع. أبكي وقد أدركتُ أنني مصابة، ومن حولي يبدو الآخرون منهمكين بما لا أدريه ولا أحد منهم مهتمّ بإصابتي. تأتي امرأة فتتفحص ساعدي وتنصحني: «اذهبي إلى المستشفى القريب وسوف يعطونك دواءً يشفيك في الحال». فأحس بالخيبة: «أهذا هو كل شيء؟».

أصحو من النوم، أتشمم الهواء من حولي: «رائحة غريبة!».. وفي كل مرة أقول فيها ذلك تجيبني أمي دون كلل: «إنها رائحة النفط».

لكن أمي تنام الآن في غرفتها المجاورة لغرفتي. فنحن لم نتنازل عن رفاهية النوم، كلٌّ في غرفتها، بل اتفقنا على ترك بابَي الغرفتين مفتوحين؛ فليست هناك تدفئة نخشى تسرّبها؛ ثم إنّ الفانوس الموضوع على الدرج المقابل لغرفتينا ينير لنا الممرَّ إلى المطبخ والحمّام؛ وعلى أية حال فإنّ الأبواب الموصدة تمنعنا من النوم لأنها تواصل الارتجاج والدمدمة طيلة الوقت، كما أننا نواصل القفز من سريرينا كلما حصلنا على جرعة قصف أقوى لنحتمي بما لا ندريه. هذا هو السبب: حاجتنا إلى الاطمئنان إلى أنّ بمقدورنا الفرار من أسرّتنا في اللحظة المناسبة. لكننا لم نتوصل قط إلى تعريف «اللحظة المناسبة»: فهل هي الإحساس بالخطر، أم التيقّن من أن «هذه اللحظة بالذات» هي لحظة الخطر المناسبة، أم حدوث الخطر بالفعل في هيئة دمار يعصف ببيوتنا؟ والواقع أن استمرار استيعابنا للخطر وتوقُّع الأشدّ والأسوأ دائماً قد عملا في النهاية على حلّ توتّرنا، فانتهينا إلى وضع جميع سيناريوهات «المواجهة» ـ التي أعددنا لها مطوّلاً ونحن ننتظر «الضربة» ـ على الرف.

... ندور كالنحل العائد إلى خليته فيجدها وقد أضحت رماداً، وكلُّ الأصوات المنطلقة من الإذاعات تلحّ علينا ببناء الخلية البديلة: «الغرفة الحصينة». يا له من لقب مُفخّم للمقبرة السومرية!..

حسناً.. أية غرفة إذن؟..

الغرفة التي سنقيم فيها طيلة أيام الحرب التي لا ندري كم ستطول: يوماً، عشرة.. مئة، إلى الأبد؟.. أم الغرفة التي سنلجأ إليها حين نُضرب بالسلاح الكيمياوي؟ وماذا عن السلاح النووي؟.. بل ماذا عن السلاح التقليدي؟ إنّ أية قذيفة تقليدية متخلّفة كفيلة بأن تطيح بجدراننا وشبابيكنا المُصمّغة وزادنا ومياهنا وكمّاماتنا البدائية وأوراقنا الشخصية!.. يا لها من حيرة، إذ سنحتاج ـ إذا ما حل بنا الخراب ـ إلى أوراق تُثْبت هوياتنا وملكياتنا وعلاقات زواجنا وأنسابنا ومصائر إرثنا، بل والطريقةَ التي سنُدْفن بها، والمقابرَ التي ستؤوينا.

أية غرفة إذن؟..

أجلس أمام أكوام الستائر البلاستيكية والأشرطة اللاصقة والخِرَقِ والبطانيات ولا أملك أن أمدّ لها يداً. لعنة الله على المخيلة الخصبة، وعلى سعة المعرفة، وعلى نفاذ البصيرة! متى سأصبح مواطنةً صالحة، واقعيةً وجيدة الاستجابة، عمليةً ويُعتمد عليها في «الملمّات»، إذا لم يكن ذلك الآن.. الآن الآن وليس غداً!؟

أنظر إلى عدّة المقاومة، ومزيجٌ من الضحك والبكاء يصطخب في كل خلية من خلايا جسدي.

مَنْ أنا.. أين أنا، وما الذي يجري حولي؟.. ماذا أصنع لألغي عقلي المشتعل داخل جمجمتي البائسة الجاهزة للعطب؟

أبهذه الخِرَق وأمتار الأقمشة البلاستيكية والأشرطة اللاصقة سأنقذ حياتي، أنا الرقمَ الغُفْلَ المدجَّجَ بآلاف الكتب وأكداس الصفحات المخطوطة والمنشورة وملايين الومضات المشرقة ومنظومةِ الأفكار والرؤى النابضة بالأحلام المحلّقة فوق الأزمان والأمكنة؟.. ما الذي سأنقذه من معترك حياتي الصاخب المتأجج المنذور للانمحاء؟ أنفاسي؟.. جريان دمي في عروقي؟ كينونتي المحكومة بالفناء؟.. وماذا بعد ذلك؟.. بعد كل ذلك؟.. بعد كل «الذالكات» التي أجهلها وأدركها بالقدر نفسه من القوة والعمق؟..

أبهذه الخِرق البالية وجرّة الماء وكسرات الخبز «المحميّة» سأنقذ البركان الحيَّ من الانطفاء؟.. أبهذه الأمتار

نواصل اكتشافَ حماقة تصميم بيوتنا الحديثة،
ونحلم بأقبية محاكم التفتيش وبمقبرة سومرية!

البلاستيكية يمكن أن أخدع وعيي وإدراكي؟

ولماذا أحمي نفسي؟.. لماذا لا أنتظر الغيمة البرتقالية أو ثمرة الفطر الهائلة لأخرج إلى إحداهما أو كلتيهما فأشرّع جسدي وروحي وكياني، قلبي ورئتيّ، واستنشق منهما قَدْرَ ما أستطيع، بل وأجري إلى لهيبهما.. إلى ذروة تفجرّهما لكي أذوب وأتفتّت رماداً تذروه العاصفةُ وتذيبه الأمطارُ السوداء ليجري إلى مستقرّه في أعماق دجلة الذي اعتاد الاصطباغ بالأحمر والأسود والرمادي على مرّ العصور؟

لعنة الله على غريزة البقاء الغبية البليدة التي تجرّنا من أنوفنا لتمرّغنا في وحل الآخرين، بل في بولهم وبرازهم وبصاقهم.. نزولاً، نزولاً إلى أعماق بواليع تفاهاتهم وغرائز شهواتهم إلى دخول التاريخ وإنْ بعبارة عابرة.

حين كنا صغاراً كنا نسمع الحكماء والمتعلمين يحيلون كل شيء على التاريخ، وهم مطمئنون إلى أنه سوف يَحْسم كل شيء في النهاية.. فكانوا حين يدينون سلوك حاكم أو سياسي يتساءلون: «ألا تخشى حُكْم التاريخ؟!» ويقولون عن المواقف العظيمة إنّ التاريخ سيسجّلها لصاحبها «بمداد من نور»، وعن الحكّام الظالمين بأنهم سينتهون إلى «مزبلة التاريخ». فكنت أتخيّل التاريخَ شيخاً وقوراً مهيباً وسيماً بلحية بيضاء ناصعة، يرتدي «بياضاً في بياض» ويجلس إلى طاولة منخفضةٍ عليها ورقٌ ومحابرُ عديدة إحداها ممتلئة بالنور، وأخرى بالذهب، وأخرى لا أدري بماذا، (أقترح لها الآن «الخراء» مثلاً)، ولا شغل له ولا عمل سوى تسجيل الأحداث وتصنيف الأشخاص وتحويلهم إلى حيث يستحقون: فهذا إلى جنة التاريخ، وذاك إلى جهنم التاريخ، وذيّاكَ إلى مزبلة التاريخ.

ما أجمل الغفلة!..

إنها الجنّة الحقيقية.. لأنني ما إنْ أدركت أنّ التاريخ إنما يكتبه الأقوياء، وأنه سلسلة من الأكاذيب يصنعها دجّالون يحترفون تملُّقَ الحاكم ويقبضون مقابل ذلك ذهباً رنّاناً، حتى وجدتُ نفسي في الدَّرَكِ الأسفل من جحيم الوعي الأبدي.

... تضجر أمي من بطء استجابتي فتبادر إلى تعليق الستائر البلاستيكية الرمادية التي صنعتها من أكياس القمامة المتينة. جلستُ أياماً وهي تفكّك أكياس القمامة وتعيد خياطتها على الماكنة بخيوط صفر وحمر وزرق، حتى إذا أنجزتْ مهمتها جلستْ تُسلّط عليّ نظراتها المستحثّة وهي تصعّد الحسرات وتقلّب ستائرها فتثير جنوني بأصوات طقطقاتها.

... أية غرفة إذن؟.. فتردّ ببساطة:

ـ كل الغرف..

ـ كل الغرف؟! مستحيل، ما حاجتنا إلى كل الغرف؟

ـ أنا أقول لك.. غرفة الطعام من أجل المواد الغذائية.. هل نتركها للسموم؟ ماذا سنأكل، قد لا نجد طعاماً نظيفاً لشهور بعد الـ.... وهذه الغرفة العميقة هي لجلوسنا منذ الغروب وحتى ننام، وهي فوق ذلك غرفة نومي.. وغرفتك سنجعلها الملجأ الحصين إذا ما.. والمطبخ؟.. هل نتركه؟.. أما الصالون..

ـ يا الله.. ومن أين سنتنفس؟!

ـ ومن يعبأ بالتنفس.. إنها الحرب.. أفيقي.. أفيييييقي!

لكنني لا أستطيع.. أرفع ذراعي فترتدّ هامدة، أدفعُ جسدي للنهوض فلا يستجيب، أنظرُ إلى الستائر الرمادية فأضحك من خطوط خياطاتها المتعرّجة.. هل حقاً ستحمينا هذه الستائر من أخطار الموت أو التشوّه أو الانمحاء؟ أكاد أجزم أنّ البابليين كانوا سيصنعون أفضل من ذلك بكثير.

عدتُ في أحد أيام ما قبل «الضربة» إلى البيت لأجد أمي وقد جلّلتْ جميع الشبابيك بستائرها الرمادية. جاءت بمسامير ودقّت الستائر حول الشبابيك، فبدا البيت غسقياً بارد الوحشة والكآبة، فحمدتُ الله ـ رغم ذلك

هذه ستائرنا جاهزة، فليشنّوا حروبهم الكيماوية والنوويّة أو أيّة حربٍ يشتهون!

ـ على أنّ أكياس الزبالة لم تكن سوداء، إذن لأصبح المشهد جديراً بعزاءٍ حُسينيّ من الطراز الأول.

جلسنا في المطبخ المجلّل بالرماد وقد هيّأتْ أمي غداءً متقشّفاً:

ـ علينا أن نحافظ على مؤونة الأغذية الطازجة في الفريزر لأيام أصعب.. من يدري كم ستطول الحرب!

ـ لكننا قد نموت في أول يوم من أيامها، فلماذا نحرم أنفسنا طوعاً؟ دعيهم يتكفلّون هم بذلك!

ـ قولي الحمد لله والشكر!

ـ صدّقيني، إنّ منظر ستائرك هذه نبوءة بأننا سنكون أول الضحايا.

ـ ألا تأخذين الأمر مأخذ الجد أبداً؟ هيّا، احسبي حسابك لأن تُعدّي غرفتك لتكون الغرفة الحصينة، وليكن ذلك اليوم.! لم يبق سوى يومين على نهاية الإنذار.

يهبّ هواءُ كانون فيخرق الشبابيك المغلقة ويعابث الستائر الرماديّة فتُطقطق بنعومة، تنتفخ ثم تتقعّر ثم تنتفخ وتواصل القرقرة. يستولي عليّ ضحك قسريّ مرير، فتغتاظ أمي وتحزرني من فوق نظارتها السميكة، وأنا أتلوّى وأشهق الهواء وأمسك بخاصرتيّ تارةً وبخديّ تارةً أخرى.. يستولي عليّ الضحك كما تستولي القبضة على العجينة: يكوّرني ويفردني ويثنيني، يُركعني على ركبتيّ ويبطحني على الأرض ويُطلق من صدري القهقهات والتأوّهات والاستغاثات الشبيهة بالعواء، فلا تملك أمي إلاّ أن تضحك لضحكي، فيضجّ المطبخُ الرماديّ بأصوات ضحكنا واستغاثاتنا وشتائم أمّي المقذعة بحقّ «مَنْ كان السبب» دون أن تجرؤ على تسمية البعض منهم ـ وقد كانوا على لسانها كثُراً ينتشرون ما بين المركز الحارق وأطراف المعمورة.

بعد أن تمرّ نوبةُ الجنون، أشير إلى رفرفة الستائر وأنا أنفث آخر اختلاجات الضحك التي أصبحتْ أقرب إلى الأنين:

ـ الهواء!

ـ ما به؟

ـ إنه يدخل من الشقوق..

ـ وماذا تريدين.. هل نموت اختناقاً؟

ـ تذكّرينني بنكتة ذلك الذي حكموا عليه بالإعدام شنقاً، وحين لفّوا الحبل حول عنقه صاح بهم مستنكراً: على مهلكم، ستخنقونني!

ـ وماذا بإمكاني أن أفعل.. هذا ما قَدرتُ عليه، قومي أنتِ فَأَصْلحي الكون!

وأحاول أن أفهمها بأنّ الستائر البلاستيكية يجب أن تُلصق على الجدران لا أن تُدَقّ بالمسامير، وكلُّ مسمار يبعد عن الآخر مسافةَ شبر! وقبل ذلك يجب إحكام الشبابيك بإلصاق حافات إغلاقها بالأشرطة اللاصقة أيضاً؛ فالهواء الذي يرفرف الآن بالستائر سيكون عند «الواقعة» كيمياوياً أو ذرياً.. ثم ماذا عن مُفرّغة الهواء في أعلى الجدار؟.. إنها فتحة هي الأخرى.. أم أن الأمر لا يعدو أن يكون رمزياً؟!.

اكتشفتُ أنّ أمي تكتفي بالجانب الرمزي من العمليّة، فهي ما إن ترى جوّ الغرفة وقد أصبح رمادياً باحتجاب الخارج عن الداخل حتى تطمئنّ إلى أنّ الحماية قد أُنجزتْ والغرفة قد «تحصّنتْ!»

وظلت أكياس القمامة تجلّل شبابيكنا حتى إلى ما بعد وقف إطلاق النار. وقد حرصتْ أمي بعد إنزالها على طويها بعناية والاحتفاظ بها في المخزن كما تحفظ المفروشات الثمينة للمناسبات الاستثنائية. فاذا كنا قد أُخذنا على حين غرّة في إحدى الحروب فهذا لا يعني أن نُستغفل في الحروب التالية.. هذه ستائرنا جاهزة، فليشنّوا حروبهم الكيميائية والنووية، أو أية حروب يشتهون.. فنحن لها!

وماذا عن «ستارة بوش»؟

يضحك أصحابنا حتى يختنقوا وهم يَسْمعوننا نسمّي بذلك ستارةً قديمةً كنا نهيّئها لنعمل منها مماسحَ للبلاط، وحين داهمتنا الحربُ تصدّرتْ هذه الستارةُ أسلحةَ دفاعنا ضدّ تسرّب ضوئنا لعيون طيّاري الأعداء!.

لدينا بابٌ نِصْفُهُ من زجاج يُفتح مِن الجهة الجانبية للبيت على ممرّ يؤدي إلى الحديقة الأمامية، واحترنا كيف نمنع ضوء فانوسنا من التسرب عبر زجاج الباب. هل نصبغه، أم نبنيه بالاسمنت؟... إلى أن تفتّحت

قريحتنا عن فكرة عبقرية، فجعلنا نطرح الستارة على الباب وهو مفتوح ثم نغلقه عليها. ولا أدري متى جعلنا نسمّيها «ستارة بوش» ومَنِ الذي أطلق عليها هذا الاسم أول مرة.

ولماذا بوش؟.

ربما لأنّ بوش كان حائطنا المائل.. الجدارَ الواطئ الذي نجرؤ عليه من بين الجدران الأكثر حصانةً.. وهذه إحدى مساوئ الديموقراطية!

حين انتهت الحرب، حربُ الأسلحة، فكرتُ بجمع تذكاراتها: الفانوس، بطاريات الراديو التي جَلبتْ الينا أصواتَ العالم طيلة أيام الحرب، أكياس القمامة الرصاصية، الأشرطة اللاصقة، أرغفة الخبز الأسود المخبوز على المدفأة النفطية، وستارة بوش.. لكنّ حماسي لهذه التذكارات ما لبث أن تحلّل بمرور الزمن، فجعلتُ أرمي بها واحداً إثر الآخر. ولم تلبث الستارة أن عادت لتُقطع وتُستخدم مماسحَ للبلاط.

* * *

ذهب الضوء. مع أول انفجار لأول ضربة ذهب الضوء.

وانتظرنا أن تتشابه الحروبُ... حروبُنا. كنّا، طيلة الوقت ونحن ننتظر «الضربة» ـ كما تُنتظر المواسمُ والفصول ـ، نعمل بحكمةٍ ـ بدت فيما بعد أنها منقطعة الذكاء ـ على رسم التناظرات: في تلك الحرب.. في الحرب القادمة.

ورحتُ أتقمّص هيئةَ «زرقاء اليمامة» وأناشد: يا قوم! هذه الحرب تختلف، لأنها آخر الحروب.. فالحرب التي كانت قبلها لم تكن حرباً، والحرب التي ستأتي بعدها لن تكون حرباً...

لكنني كنت أنهمك في اللعبة في نهاية الأمر..

لذا تخيّلنا أنّ ملوك الظلام سوف يقبضون على الطاقة الكهربائية، يلعبون معنا لعبةَ المنح والمنع، لكي يروّضونا.. يلوّعونا، ويقلبونا فوق نار الحرمان على الجنبين، فإذا ما «استوينا» رفعوا أيديهم عنها قائلين: «خذوها لا بارك الله لكم فيها».

لكنّ الضوء راح.. رااااح..

وكانت الحرب الجديدة طرازاً مختلفاً اختلافَ الميكروجوب عن الماكسي..

ذهب الضوءُ مع الانفجار الأول حين دارتِ المجرشةُ الهائلة وبدأ الطحن.

أنا أفكر الآن بأنّ ضرب محطات توليد الطاقة لم يكن أبداً.. أ بّـ بّـ بّـ بّـ بّداً من أجل قطع اتصالات القيادة بالجبهة أو تعطيل المصانع والمعامل.. ما هذا الهراء!.. إنه فقط. فـ قـ قـ قط من أجل شلّ حياة الفرد العادي: مزيد من الوقود على بقايا خليّته المشتعلة لكي لا يأمن فيها ولا يتلّهى داخلها عن أية ذبذبة لأية قذيفة، عن أية شهقة لأيّ صاروخ، عن أيّ انشقاق للهواء تشقّه الطائرات، عن أيّة رعشة للأرض وأيّ نبض للجدار... كانوا يزرعون في ذاكرة خلايانا الرعبَ الأكبرَ لكي نورثه أبناءنا وأحفادَنا كما نورثهم الملامحَ والطباع.

تخيّلونا ونحن نُمضي أيامَ الحرب في بيوتٍ مضيئةٍ وتلفزيوناتٍ مشتغلة وبراداتٍ تحافِظ على أطعمتنا ومواقد ومدافئَ تعفينا من روائح النفط الخانقة ومن اللهاث وراء قطرة النفط ونفحة الغاز. تخيّلونا ونحن نستدفئ ونقرأ ونتسلى بالألعاب ونتهاتف ونستعيض عن الارتهان لسيمفونية الهلاك بسماع الموسيقى والغناء!

كان رعبُنا سيُخْتزل إلى النصف، وشَلَلُ حياتنا إلى أقل من الربع...

كانت هذه الحرب ستشبه تلك..

ولكنّ تلك لم تكن حرباً.

وهذه هي آخر الحروب.

ذهب الضوءُ فأفقتُ على عتمة مريبة.. كيف يمكن أن يصحو النائمُ على حلول العتمة؟.. أفقتُ على إحساس بانقلاب غريب.. كأنني في قلب حبّة جوز.. لعلني قد أفقت أساساً على صوتِ أولِ انفجارٍ سمعتُهُ في بحر نومي.. ثم ما لبث فضاء الحياة أن تشقّق.

أصوات وأضواء واهتزازات.. لم أعِ أنني نهضتُ، لكنني وجدتُ نفسي أدور حول محور وقوفي، أفتش عن

شيء لا أدرك ما هو.. ألمس الأشياء وأقلّبها، أنفض أغطية السرير وأرتطم بقطع الأثاث... وحين فتحتْ أمي عليّ بابَ غرفتي كنت أخلع ملابسي... منذ أيام هيأتُ لنفسي طقم ملابس ووضعْتُه إلى جانب سريري.. ملابس خروج دافئة وسميكة و«محترمة»: بنطلون وكنزة وشال وجزمات صوفية ومعطف.. هذا من أجل أن أنطلق إلى الشارع وأنا بكامل قيافتي إذا ما تهدّم بيتنا، أو إذا ما تلقيتُ إنذاراً أكيداً بأن بيتنا سينهدم، فلا أبدو إذّاك كالضحايا الذين نراهم على شاشة التلفزيون حين تحل بهم الكوارث مشعّثين بملابس النوم يولولون ويلطمون ويلملمون ملابسهم الحميمة حول أجسادهم المرتعشة.. لقد أردتُ أن أبدو «ضحية محترمة»!

في ما بعد أخبرتني أمي أنها وجدتني أدور حول نفسي وأنا أردّد: «جاءوا... جاءوا..» أما هي فكانت تشير نحو الشباك وهي تلهوج وتردد بلا انقطاع: «لا يحيق المكرُ السيّئُ إلاّ بأهله». وتتلو الأدعية والآيات.

تركتُ ملابسي المحترمة وركضتُ نحو الشبّاك. أزحتُ طرف الستارة بحذر كما لو أنّ الهلاك سَيَدْخل منه بالقَدْرِ الذي أزيح به الستارة.. أو كما لو أنّ الهلاك يقف لنا خلف الشبّاك لينتهز أية فجوة ليندلع منها إلى داخل بيوتنا.

كانت السماء تصطخب بالجنون وكأنّ لحظة الخلق الأولى قد أَزِفَتْ، وآلهة «الفوضى والعماء» تصطرع مع آلهة الخلق والريح والحكمة والمطر والحب لتَحُول بينها وبين تنظيم الوجود.

ما الذي سنفعله الآن؟

نمتشق السيوف ونخرج لنسأل: هل مِنْ مبارز؟

أم نحمل العصيّ والعمدان لنُنْشِدَ مَع خولة بنت الأزور: «نحن بناتُ تُبّعٍ وحِمْيَر»؟

أم نخطّ، على عجَل، لافتات: «يسقط».. «يعيش»؟..

محنة الأصفار حين يُقدّر لمواقعها أن تكون إلى شمال الرقم..

محنة المفعول به.. المنصوب عليه..

غاب الضوء ليلة البداية ونهارها التالي، فنمنا الليلة الثانية على يأسٍ من عودته..

فجأة اشتعل البيت كما لو أنّ ناراً اضطرمتْ به.

ضوء!

قفزتُ فَزعةً فوجدتُ أمي تركض في أرجاء البيت وهي تطفئ أضواء المصابيح وكأنّها تداري فضيحة أو جريمة..

«الراديو.. الراديو».. كانت تهتف وهي تواصل الهرولة، فلم أفهم.. كنت أقف متبلّدةً في فيض الضوء كما وقفتُ بالأمس في فيض العتمة.

مَنْ، وما الذي أرسى في وعينا أنّ في العتمة اتقاءً للخطر؟ بعض الناس كانوا يحشون ثقوب مفاتيح أبوابهم بالقطن لئلا تُسرِّبَ بصيصَ ضوءٍ إلى الخارج، على الرغم من أن أضواءنا لم تكن تتعدّى أضواء الفوانيس الخابية. فالشموع غالية ونادرة وسريعة الاستهلاك، ولم نكن مهيئين ـ كما كان الناسُ في بيروت ـ لاقتناء المصابيح الغازية، أو حتى لدوام استخدامها ـ إنْ وُجدتْ ـ بعد استكلاب السوق وانفجار الغلاء.

بعد أن استتبّت العتمةُ في دارنا همستْ أمي وهي ترتعش: «لقد ضَرَبْنا إسرائيل بالصواريخ»!!.

انقلب السيناريو الذي كنا نهدهد به اضطرابَنَا وَوَهْمَ أمانينا. فقد كنا نتوقّع أن تتأخر مرحلةُ الصواريخ لتكون آخر السهام. أما أن يحدث ذلك في الأيام الأولى...

صار تلقّي ضربة الانتقام أكيداً الآن.. لكنّ طعم الضربة هو ما جعلنا نتكهّن به: أيكون كيمياوياً أم نووياً؟.. فإذا كان صاروخنا تقليدياً فسوف يضربوننا بالكيمياوي، أما إذا كان صاروخنا كيمياوياً ـ كما كان شبه مؤكد ـ فسوف يضربوننا بالنووي..

وجعلنا نقفز بين محطّات الاذاعة كما تتقافز حبّاتُ الذرّة على السطح الساخن: «كيمياوي.. لم يتأكد بعد.. أما إذا كان.. لم يتضح بعد.. يجري تحليل أجزائه.. والسلاح البايولوجي من ناحية أخرى.. وأضاف الناطق.. غير أنّ النتائج.. وبلغت الإصابات.. يناشدها ضبط النفس.. تهدّد بالردّ.. وفي حين يحبس العالم أنفاسه.. لن نسمح لأحد.. أما إذا كان ذا رأس.. سكود.. الردّ السريع.. مَنْ تسوّل له نفسه.. الحسين.. الأقنعة الواقية.. في حين أنّ الكيمياوي المزدوج سوف.. إنّ ضحايا الصاروخ الأول.. خلال ساعات.. أما الملاجئ فقد.. الغرف المحصّنة..».

نرتجف برداً ورعباً ونحن نتطلع إلى شبابيكنا التي ستعصف بها الكيمياء والبايولوجيا، بل ربما الذرّة.. فالانتقام يجب أن يُسجِّل درجةً أعلى من الفعل.

الآن لم يعد بدّ مما ليس منه بُدّ..

أنهض وأنا أرتعد.. أمتشق الأشرطةَ اللاصقة، وتلحق بي أمي بالخِرَق والقطن والبطانيات.. أُزيح الستارة عن مسرح الهلاك: نيران هابطة ونيران صاعدة ونيران عابرة.. طائرات تسحق الفضاء، تنقضّ ثم تشهق مرتفعة.. والصواريخ اللبيبة العاقلة الذكية تقف فوق رؤوسنا، تهدر وتزمجر وتواصل الأنين وهي تبرمج أهدافها.. قد نكون نحن هدفَ هذه الصواريخ.. في أية ثانية، بل في أيّ جزء من الثانية ـ إذا ما تطابق برنامجه مع خارطة المكان ـ فإنه سيُنزل صاعقته الماحقة على ارتعاشنا الذليل فيُنهي رعبنا إلى الأبد.

وماذا عن زائر الانتقام المنتظر؟

أتلمّس في العتمة حوافَّ الشبّاك وزواياه، وأحاول سحب الشريط اللاصق فلا يطاوعني، وحين يطاوعني أفقد المكان المطلوب إلصاقه به، فأقرر إشعال الضوء ولا أبالي.. فما الذي يمكن أن يصيبنا أكثر مما أصابنا حتى الآن؟ إلى جهنم بكل شيء!.

تنفتح الغرفة أمامي والظلام خارجها مثل غول فاردٍ صدرَهُ وذراعيه وشدقيه وعينيه.. أشرع قامتي السابحة بالضوء الفاضح على المجهول المتربّص في الظلام... أُلصق على عجلٍ الأشرطةَ التي جعلت تتفتّت بين أصابعي وتتقطّع، وكلما ألصقتُ جزءاً منها ذبل والتوى هابطاً، فأعاود الضغط عليه بكل قوتي.

أشرطةٌ حمرٌ وسودٌ وترابية عتيقة تجاوزتْ تاريخ صلاحيتها، نستجير بها لتحمينا من الفناء. ولقد كنت في الواقع أحفر قبراً: أفرّ من الخطر الهابط العاصف بالحفر.. عميقاً، عميقاً في الأرض، أحفر بأصابعي، بأظافري، بكفيّ وساعديّ، أدسّ جسدي إلى أبعد ما يمكنني كما تفعل الجرذانُ وديدان الأرض، وأنا أدرك أنني ـ مهما حفرتُ ومهما توغّلتُ ـ سأظلّ على السطح جاهزةً للانسحاق الفوريّ في أية لحظة يشاؤها ملوكُ الظلام.

وعبر جميع المحطات كان الراديو يواصل النعيب.. كل لحظة، أية لحظة هي لحظة تاريخية..

لحظة اختراع البارود..

لحظة انشطار الذرّة..

لحظة اكتشاف النار..

لحظة اختراع العجلة..

لحظة نزول القرد من على الشجرة!

وتواصل أمي رَصْفَ زجاجات المياه.. آخر المياه الصالحة للشرب قبل أن يصطبغ دجلة باللون البرتقالي أو برماد ثمرة الفطر.. وأكياس الطعام.. آخر طعام صالح للأكل قبل الانبعاث: خبز، كعك بالتمر، طحين، تمر.. وكمامات بدائية مصنوعة من الشاش والقطن المحشوّ، بمسحوق الفحم وكربونات الصوديوم.

حتى إذا ما انتهيتُ من إلصاق حوافّ الشبابيك وحشو الفتحات المستعصية بالخِرَق وتغطية الشبابيك بالبطانيات، وأنهتْ أمي جَلْبَ مؤونة البقاء، جلسنا مستَنْفَدَتَيْن رعباً وتعباً وبرداً وانخذالاً ننتظر الأمر بدخول المقبرة السومَرية وإغلاق بابها علينا إلى أن يحين موعدُ انبعاثنا في الحياة الأخرى.

أوقدنا المدفأة وصنعنا شاياً من أجل الفجر الذي بدأ بالاستيقاظ.. يا للعجب!.. كيف يمكن لليل والنهار أن يكونا على هذا القدر من اللامبالاة وكأنّ شيئاً لا يحدث تحت ساحة ملعبهما؟ وتلك النجمة الزاهية.. ما أشد لؤمها إذ تواصل الغمز واللمز والمعابثة دون أن تعبأ ببأسنا وأنفاسنا المصلوبة باتجاه الغرب.

ومع أول خيط من خيوط الشمس سمعنا النبأ: الصاروخ لم يكن ذا رأس كيميائي، بل كان تقليدياً..

انحلّ توتّرنا وآوينا إلى حضن التطابقات الرحيم: ما أشهى أن تُشْبِه هذه الحربُ تلك.. يا رب.. اجعل هذه تشبه تلك ولتدم ثمانين عاماً!.

كلا.. لم نقل ذلك، ذلك الصباحَ، بل قلناه في هيئةِ أُمْنيةٍ تاليةٍ بعد سنوات من ذلك الصباح. أما في «ذلك الصباح» فقد قررنا استئنافَ الليلة الفائتة، ونمنا على الفور.

عمان، تموز ١٩٩٧